

## مقدمة

الحمد لله العليم الخبير، خلق عباده ولم يتركهم سدى، فأنزل كتبه، وأرسل رسله، مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وصلى الله وسلم وبارك على النذير البشير، والسراج المنير، أرسله الله رحمة للعالمين، فهدى به قلوباً غلفاً، وأنار به أعيناً عمياً، وبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن التفقه في دين الله خيرٌ عظيم، يختص الله به من يشاء من عباده؛ «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». والعلم بالله وبدينه عَطِيَّةٌ ربانية يستنزلها الصالحون كما يستنزلون الغيث من السماء، باللّهج والدعاء للعليم الخبير ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. وهم يتفاوتون في العلم والفقهِ كما يتفاوتون في الأرزاق، وقد

تفاوت الأنبياء وهم سادة العلماء، كما أخبر ربنا عن نبي الله داود وسليمان: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) فَفَهَمْنَاهَا سُلَيْمَانٌ وَكَأَلَّا ءَايَاتِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا. والعلماء من بعدهم كذلك يتفاوتون في العلم والفهم. وهذا لا يُنقص من قدرهم، ولا يغض من فضلهم.

وقد توافق المؤرخون للاجتهاد الفقهي، على التمييز بين العصور، في حركة الفقه والاجتهاد، ووصفوا بعض مراحلها بقوة الاجتهاد ورسوخه، ووصفوا مراحل أخرى بالضعف والجمود.

والسؤال هنا: هل الاجتهاد المعاصر ينتمي لمراحل القوة أم لمراحل الضعف؟ ولا ينبغي هنا أن نجامل عصرنا أو نقسو عليه، دون مبرر مقنع، وفي القواعد الفقهية: «الأصل بقاء ما كان على ما كان». هل يعني هذا أننا امتداد تاريخي لمرحلة الضعف والجمود، حتى يثبت ما ينقل عن هذا الأصل؟. الأمر بحاجة لدراسة موضوعية جادة تحلل هذه المرحلة، وتكشف منزلتها في السلم التاريخي للاجتهاد.

إن انتقال (العقل الفقهي) من مرحلة ضعفه وجموده، إلى مرحلة قوته وتفوقه عملٌ كبير يستحق منا الكثير. يستحق أن نعطيه من أعمارنا وتفكيرنا وتأليفنا وتعليمنا وتدريبنا؛ حتى نصل إلى مرحلة تليق بقيمة التفقه في دين الله، في زمان فاء الناس فيه إلى إقامة شريعة الله.

نعم، لقد حصلت نهضة مشرفة في طباعة الكتب الفقهية، وبناء الكليات الشرعية، والتواصل التقني لنشر الفتوى والفقه، بيد

أنه لم تحصل نهضةٌ كافية في (العقل الفقهي) الذي يتعاطى مع هذه الوسائل. هل نشك أننا بحاجة إلى تطوير اجتهادنا الشرعي؟! وأنا بحاجة أن نتباعد أكثر عن مرحلة الضعف والجمود، وأن نقرب أكثر من مرحلة ازدهار حركة الاجتهاد والفقهاء الإسلاميين؟! من كان يشك في هذا فإنه لم يصل إلى مرحلة الألم التي تضطره للبحث عن الدواء. والألم هو خير مقنع برحلة البحث عن الدواء والشفاء، أما قبل الألم فإن الإقناع بجهد مُضن ورحلة شاقّة أمرٌ عسير.

إن الاجتهاد الشرعي يقوم على (دليل صحيح)، (وتعامل صحيح) مع هذا الدليل. وفي الحديث النبوي ما يرسخ هاتين المرحلتين، مرحلة (الدليل الصحيح) التي عناها بقوله: «رب حامل فقه». ومرحلة (التعامل والتفقه الصحيح) مع الدليل، التي عناها بقوله: «إلى من هو أفقه منه»<sup>(١)</sup>.

أما صحة الدليل، والتوثق من ثبوته، فإن العصر الحديث شهد نهضة كبيرة على أيدي علماء الحديث، وقد تحمّل المعلمي وأحمد شاكر والألباني وغيرهم عبء هذه النهضة، وصنعوا اتجاهًا حديثيًا أثر في كل المهتمين بالعلم الشرعي. وفي هذا الجانب بالذات نستطيع أن نرى الفرق بين مرحلتنا المعاصرة، والمرحلة الماضية إبان ضعف الاجتهاد وجموده.

أما التعامل الصحيح مع الدليل، فلا يزال الأمر بحاجة إلى

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وصححه الألباني. انظر: الصحيحة (٤٠٤)، (٧٦٠/١).

تجديد واجتهاد؛ وكثير من العمل الفقهي اليوم، إما أنه ينتمي للمرحلة الماضية، أو أنه اجتهادٌ ظاهري انتشر مع النهضة الحديثة. والاجتهاد الظاهري اجتهاد حرفي لا يحمل معنى الفقه وروحه، بل يضر بالفقه من حيث يريد نفعه.

من أجل ذلك صحَّ العزم بإذن الله على المشاركة والمساهمة في (خدمة العقل الفقهي المعاصر)، بُغيةً اكتشافه، وتحليله، وتطويره. وفي سبيل هذه الرؤية كان الكتاب الأول وهو: «إشكالية الحيل في البحث الفقهي» وقد اشتغلت فيه بدراسة بُنية الاجتهاد في المدونات الفقهية في التراث، واتَّخذت الحيل الربوية نموذجاً للدراسة، باعتبارها طريقةً ومنهجاً في التعامل مع النص الشرعي في الربا وغير الربا. وجاء هذا الكتاب خطوةً ثانية في الطريق ذاته، ليدرس طريقة المعاصرين في النظر الفقهي وتأثرهم باتجاهات المتقدمين في الاجتهاد، ويتضمن بابين: باباً لمسائل معاصرة اشْتَعَلَت المجامع الفقهية والهيئات الشرعية ببحثها، مع تأثيرها الكبير في المصارف الإسلامية. وبيَّنت ما أراه من تحليل لطريقة اجتهاد المعاصرين فيها، ومدى تأثرهم بالاتجاهات الفقهية في التراث. وقدمت - بين يدي هذا الباب - باباً تمهيدياً، جعلت فيه ملاحظات أولية في فقه المعاملات المالية المعاصرة. وهي ملاحظات أولية لأنها لا تزال في مراحلها الأولى وتحتاج إلى مزيد استقرار وتتبع؛ والفكرة لا تنمو حتى تجد نفسها خارج الذهن، وتستهلّ كما يستهلّ الصبيّ، ويلفحها البرد والنقد، فيستقيم عودها، ويشتدُّ صُلْبها - بإذن الله - .

وفي سبيل هذه الرؤية (خدمة العقل الفقهي المعاصر) هنالك أفكار بحثية في المستقبل بإذن الله، هي خطوات في الطريق، اتلمّس بها طريقي نحو الغاية (=خدمة العقل الفقهي المعاصر). وفي هذه الأفكار ستقع أخطاء ولا بد، ويجب أن تتسع صدورنا للخطأ كما اتسعت صدور من سبقنا، إذا كان ذلك الخطأ بعد بذل الجهد والطاقة. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ﴾. والخوف الشديد من الأخطاء في (الأفكار والنقد) سيمنع عنا خيراً ونماءً كبيراً.

وهذا لا يعني أن الاجتهاد الفقهي المعاصر يخلو من جوانب قوة تستحق الثناء والإشادة، بل هناك جوانب مشرقة - والله الحمد والمنة -، غير أنه لا ينبغي أن تكون علاقتنا بالاجتهاد الفقهي المعاصر علاقة المحامي المناصر، الذي يدافع وينافح عن موقف مؤكّله كيفما فعل، كذلك لا ينبغي أن تكون علاقتنا به علاقة المحامي المعارض، الذي ينتقد ويتهم مهما كان الموقف، ولكن موقف القاضي العدل، يميّز بين جوانب القوة لنحافظ عليها، وجوانب الضعف لنسعى في تطويرها.

ربما نخلط بعض الشيء بين اجتهادنا المعاصر وما ننقله من اجتهاد الأئمة من قبل، وبعض ما يُعجِب ويُطرب مما نراه في خطابنا هو نقلٌ لاجتهاد سابق، وليس اجتهاداً معاصراً. ونقل الخير، لكنه لا يعبر عن حالة اجتهادية معاصرة. ولذلك تجد المكان الأفضل لاختبار الاجتهاد المعاصر هو فيما يعرض لنا من نوازل ومسائل حادثة، في السياسة، والاقتصاد، والطب، ونحو ذلك.

هل طريقتنا في التعليم والتأليف تبني عقلاً (علمياً) أم عقلاً  
(معلوماتياً)؟!

هل تبني (فقيهاً) أم تصنع (حامل فقه)؟!

إن (العقول المعلوماتية/ وحملة الفقه) لن يستطيعوا أن يقوموا بأعباء الأمة التي تتطلع إلى اجتهاد شرعي قوي، يوافق شريعة الله في كتابه، ويراعي سنة الله في خلقه. ويفقه الأحكام الشرعية، ويحسن تنزيلها وتطبيقها. لا سيما في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الأمة، حيث اختارت الشعوب إقامة شريعة الله، وأصبحت الحركات الإسلامية على سدة الحكم في بعض البلدان العربية، وأصبحت حاجتها للاجتهاد الشرعي القوي أكثر أهمية وإلحاحاً؛ حيث إن الخطأ الواقع على الشعوب باسم الدين وحجة الدين، أثقل في الميزان من الأخطاء الأخرى. ومعرفة أحكام الشريعة فيما تحتاجه الدولة المسلمة بكيانها وأفرادها مهمة جليلة، ومعرفة الواجب الشرعي في فقه تطبيقه وتنزيله مهمة جليلة أخرى، ولن يتأتى ذلك لاجتهاد فقهي يحمل سمات المرحلة الماضية مرحلة الضعف والجمود.

ولا شك أن الاجتهاد مهمة صعبة لا يستطيعها عامة الناس، وهي في الوقت نفسه ليست مهمة مستحيلة، فالقرآن والسنة نزلت لنا كما تنزلت لمن سبقنا، وتنزلت لنفقهها ونعمل بها. إنها لم تنزل لجيل سابق فحسب، حتى نكف عن الاجتهاد الجاد! والمفارقة: أنه كلما ضعف الاجتهاد في زمان، بالغ أهله في

شروط الاجتهاد، حتى يخلو الزمان من عالم تتوافر فيه هذه الشروط!. وفي بعض الأحيان تضخيم العمل وتفخيمه يضر العامل ويُعِده أكثر مما ينفع العمل ويجوّده.

يقول الثعالبي: «ندرة المجتهدين أو عدمهم هو من الفتور الذي أصاب عموم الأمة في العلوم وغيرها، فإذا استيقظت من سباتها، وانجلى عنها كابوس الخمول، وتقدمت في مظاهر حياتها..، وظهر فيها فطاحل علماء الدنيا من طبيعيات ورياضيات وفلسفة، وظهر المخترعون والمكتشفون والمبتكرون كالأمم الأوروبية والأمريكية الحية، عند ذلك يتنافس علماء الدين مع علماء الدنيا فيظهر المجتهدون.. وقد أطلت في هذه المقام؛ لأن جل أهل العصر تمكن اليأس من قلوبهم، والجمود من أفكارهم، فيحيلون أن يأتي في الزمان مجتهد، ويظنون أن هناك شروطاً لا تمكن، ولا يتصور مع فقدان وجوده»<sup>(١)</sup>.

إن خدمة العقل الفقهي المعاصر وتطويره مشروع كبير، يحتاج إلى أن تتضافر عليه الجهود، وأن تنفق فيه الأعمار، في التأليف، والتعليم، والتدريب، والإفتاء، والاجتهاد. ولن يضيع الله جهد من أحسن عملاً، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ نسأل الله من واسع فضله وكرمه، وأن يحقق الله آمالنا، ويصلح أعمالنا، ويحسن عاقبتنا في الأمور كلها.

---

(١) الفكر السامي (٢/٥١٩).

وهذه الدراسة التي تأتي في سياق خدمة العقل الفقهي  
المعاصر ستكون في فصلين:

**الفصل الأول:** ملاحظات أولية في فقه المعاملات المالية  
المعاصرة.

**الفصل الثاني:** اتجاهات الفقهاء المعاصرين في المعاملات  
المالية المعاصرة بين شكل العقد ومضمونه (نماذج تطبيقية).



